**مقاربة الواقع في روايات زهرة رميج.**

يشكل سؤال أزمة الفرد المغربي بؤرة الخطاب الروائي عند الكاتبة "زهرة رميج"، فهي تكتب من أجل الإنسان والوطن، وقد استطاعت عبر رواياتها النفاذ إلى أعماق الذات الإنسانية والتغلغل فيها، وهي تسرد حقائق أضاءت من خلالها جوانب وحالات ومواقف إنسانية مختلفة.

إن تجربة "زهرة رميج"الروائية تتسم بالجدية والعمق لارتباطها بالواقع، فهي أشبه بالتحدي الذي يقف في وجه الظلم والطغيان، وهي لا تبغي من ورائها جزاء ولا شكورا.

**1-أخاديد الأسوار: سيرة ذاتية لأزمة نضال سياسي.**

قد يتفق كثير من النقاد على نعت هذه الرواية بأدب السيرة الذاتية، وإذا نظرنا إلى الرواية نجد أن معظم فصولها جاءت على شكل مذكرات ورسائل ومونولوجات داخلية، فهي عبارة عن يوميات لحياة سابقة عاشتها الكاتبة، حكايتها مبنية على تجربة حية عاشتها مع زوجها الذي كان سجينا سياسيا وتوفي نتيجة الآثار التي ترتبت عن هذا السجن، حيث عانى كثيرا من صعوبة الاندماج بعد خروجه من السجن، والخوف من الظلمة والأماكن المغلقة، والصمت، وسرعة الغضب، وتقلب المزاج، وقد ظهر ذلك عبر صفحات الرواية في أكثر من موضع/

إن عمل الكاتبة الروائي لم يأت منفصلا عن الواقع والمجتمع، ولا يمكن أن نجد أدبا بعيدا عن المجتمع، لأن العلاقة بينهما علاقة وطيدة، وروايات زهرة رميج جاءت مثقلة بالواقع المر الذي عايشه المغاربة خلال فترة من تاريخ البلاد وقد عبرت عن الحقيقة التي عاشها السجناء، ولا يمكن عد هذه الكتابة لحظة عابرة أو مجرد سرد أو وصف للأحداث، إنما هي أدب وتجربة إبداعية تغوص في خبايا النفس البشرية التي اكتوت بنار الظلم، حيث كان من ثمار الأزمة التي عاشها المغرب الشقيق، وهو يهدف إلى وصف الواقع وصفا صادقا واقعيا ودقيقا، ويمكن عده بمادة للتأريخ كذلك جاءت في قالب سردي تصويري مكثف الدلالات.

تريد الكاتبة بهذا العمل رد الاعتبار إلى زوجها وكل من ناضل وذهب ضحية الوفاء للوطن، من خلال نقل معاناته في السجن، وقد صدرت الرواية بإهداء يتصدر الرواية : (**إلى روح زوجها ورفيقي امحمد الحضري أولا وأخيرا، إلى الرفيقين عبد القادر الشاوي وعبد السلام الباهي"، وفاء لصمودهما الذي سأظل مدينة له ما حييت. إلى كل المناضلين الشرفاء الذين حفرت المعتقلات والسجون أخاديد لا تنمحي في أعماقهم، والذين لم يبتغوا-أبدا-من نضالهم جزاء ولا شكورا**)، ما يدل على أنها حاولت إيصال هذه المعاناة إلى المجتمع، وتخليد ذكراه، مسلطة من خلال ذلك الضوء على هذه الفترة المعتمة من التاريخ المغربي.

لقد أحدثت الأزمة في نفوس الكتاب جرحا عميقا لا يندمل لا سيما الذين مستهم هذه الأزمة، الأمر الذي جعل نصوصهم تحمل طابعا من المأساة والحزن، ولم تكن هذه الأعمال إلا وسيلة لنقل معاناة هؤلاء ولم شتات ذكرياتهم والتعاطف معهم والتألم لحالهم.

وقد أبرزت الكاتبة معاناة زوجها داخل السجن وروت تفاصيل عما يحدث في السجون من انهيارات نفسية وجسدية، وكذلك حياته خارج السجن وذكرياته الأليمة وأزمة البحث عن الذات وإثبات وجودها. وتعد الرواية شهادة صادقة عن الذات المغربية التي اكتوت بجحيم الألم والظلم .

وقد كشف لنا السرد عن نفسية الكاتبة الخاصة، حيث لا زالت تعيش على ذكرى هذا الزوج المضطهد، فهي تعيش حالة من القلق والتوتر والصراع الداخلي كما يطلعنا عليها السرد(شربت الحزن حتى الثمالة لدرجة لم أعد أطيق معها أحد)

إن الرواية مليئة بالجراحات الدفينة (أحمل جرحي بداخلي وأمضي) ، إنها تغوص في الذات الإنسانية، وتتغلغل في أخاديد مأساتها وهي تتجرع ذكرياتها بكل حزن عميق، فهي تحمل لحظات عاشتها وما تزال تذكرها رغم مرور السنين( الجرح ما يزال مفتوحا عن آخره) ، يأبى النسيان والاندثار.

تعيش الكاتبة ذكريات الماضي الأليم بكل تفاصيله، فذكرى زوجها تعيشها دوما وتتبعها أينما حلت وارتحلت . وهي في ذلك تقدم شهادة حية عن تاريخ المغرب، وتصور أفكار ونضال وأحلام جيل السبعينيات الذي تشبع بالعديد من الأفكار المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية، أين برزت الماركسية والوجودية والقومية والحركات الإسلامية والثورات التحررية.

كما تكلمت في نصها عن الأمراض التي تنخر جسد المجتمع العربي، فتستحضر سجن أبو غريب بالعراق وطغيان أمريكا، تكلمت عن معاناة السوريين، عن الفقر والتهميش عن استبدال الحكام العرب وظلمهم.

إن شخصية الكاتبة هي الشخصية المحورية، والشخصية الثانية هي شخصية الزوج الميت التي تستدعيها لتقوم بسرد متنها الحكائي، مات هذا الزوج المناضل متأثرا بآلامه النفسية والجسدية نتيجة سجنه، والكاتبة تحكي قصتها مع زوجها والتي انحصرت في تداعيات السجن وتبعات الموت في شكل حوار ونقاش ديمقراطي حول أمور متعددة ومختلفة بلغة شعرية يعلوها الحب والمشاعر النبيلة، وكان السرد في ذلك يأتي متدفقا قويا، يغوص في أخاديد المشاعر والأحاسيس.

بين غرفة النوم والمطبخ والحديقة والشارع إلى الغابة تنتقل الشخصيات تحكي عن الأحزاب في المغرب والبرلمان وشراء الأصوات، والخيانة والتصفيات الجسدية والقمع وأجواء السجون المظلمة.

ورغم أن الرواية تبرز معاناة المرأة الزوجة إلا أنها ليست البؤرة التي تبني عليها الكاتبة عملها الروائي، هذا العمل الروائي يصور الإنسان السجين وقد ركزت على تصوير وإظهار هذه المعاناة، بحيث قدمت السجن نقطة سوداء لما تضمنه من بشاعة في حق الإنسانية، بل ذهبت الكاتبة بعيدا حين ربطته بمعتقل أبو غريب وأبو زعبل العراقيين، والرواية لم تتوقف عند رصد المعاناة فقط، بل طرحت أيضا قضية مهمة جدا وهي قضية تعويض السجناء السياسيين المسجونين ظلما والذين تمت تصفيتهم جسديا لسبب أو لآخر، تقول في قضية التعويض متسائلة بمرارة:

(هل يمكن تعويض ما فات؟ وبأي مقياس تقاس الآلام والمعاناة؟ وبأي زمن يقاس ذلك الزمن؟

كنت تصيح في وجه كل من يدعوك إلى المطالبة بحقك في التعويض، لقد رفضت كلمة "تعويض" بكل إصرار وكبرياء، ذلك أن المعاناة التي عانيتها، والآلام النفسية التي ظلت كالسوس تنخر جذعك من الداخل، لا يمكن لمال الدنيا محوها والقضاء عليها، لذلك، لم ترضخ لأحد، ولم تستمع إلا إلى نفسك، لجراحك التي تحتج بداخلك، التي تصيح فيه: إياك أن تبيعنا! إياك أن تتنازل! كنت تتساءل في استهزاء: كم سيقدون مقابل كل لحظة، كل دقيقة، كل ساعة قضيتها وراء الشمس ؟ كم ثمن كل إهانة تعرض لها جسدي ؟ كم ثمن كل جرح انفتح بأعماقي؟ كم ثمن كل حلم غيبه الظلام؟

ما حجم المال الذي يستطيع إزالة كل الأخاديد المحفورة عميقا بداخلي؟ أي تعويض يعيد الحياة لي الطبيعة، يعيد للأحلام أجنحتها، يعيد إليها خصوبتها بعدما تم خصيها ؟ !)

**2- الناجون: بين النضال السياسي والهوية المبعثرة:**

كتبت الروائية روايتها غير منفصلة عن الأحداث الاجتماعية والسياسية التي عاشها المجتمع، وهي ترصد مرحلة مهمة من تاريخ المغرب الشقيق، فهي تساير الأيام العصيبة التي مر بها المغرب بصورة يعلوها التخييل. حيث عالجت الموضوع معالجة فنية شديدة الإحكام والبناء، بأسلوب سردي رصين نقلت من خلاله الظروف المأساوية للإنسان المغربي في الفترة المظلمة، وهذه المعالم الدامية تشكلت في ذاكرة الأدباء، وأمدتهم بمادة موضوعية رافدها الواقع، والكاتبة واحدة من هؤلاء لا تعيش بمعزل عن مجتمعها، فقد عالجت مختلف التحولات الطارئة على المجتمع والفرد خاصة، بوصف الرواية أقرب الفنون استعابا لمضامين المجتمع والحياة، لقد تحولت المطالبة بالتغيير والعدل من قبل المناضلين الشباب إلى مآسي مهولة عصفت بإنسانية الفرد المغربي وذاته مما دفع بالكاتبة إلى رصد وتسجيل الأحداث وطرح عديد من الأسئلة التاريخية والسياسية بلغة فاضحة لتعرية الواقع.

تتناول رواية الناجون الحركة الطلابية وانخراط الشباب في العمل السياسي، فكانت الجامعة الفضاء الرحب لأحلامهم الشبابية التي تطمح للتغيير عبر الأحزاب المختلفة، انطلاقا من مبادئ اشتراكية، وهو الحلم الذي لاقى تعاطفا من قبل الكثيرين حتى عناصر من السلطة.

إن الرواية هي قراءة نقدية للواقع السياسي والنضالي المغربي قدمتها الكاتبة في صورة تعلوها السخرية والتهكم، عبر عرض معاناة شخصياتها "سامية وراضية ونادية وسعيدة"، كما يمكن عدها شهادة تاريخية لهذه الحقبة من تاريخ المغرب، تناولتها بأسلوب الحوار والنقاش والجدل الدائر بين الشخصيات المختلفة، وهذا كما يتمثل في الفصول الأخيرة من الرواية.

وتبدو الشخصيات الروائية هي العنصر الأكثر حضورا، وقد اختارت الكاتبة شخصيات مثقفة لتقديم صورة المغرب فترة السبعينيات، لأنها القادرة على قراءة ما يقع بكل تفاصيله، ويكمن حضورها من خلال سماتها وملامحها ومن خلال وعيها وإرادتها وفعلها، وهي تعرف حالات نفسية متباينة، فهي الثائرة حينا، والهادئة حينا آخر والساخرة من الوضع في أحايين كثيرة، ولعل من أبرز الشخصيات "عبد العاطي المرزوقي" أو "أندريه" المناضل المغربي الذي هرب إلى فرنسا متخذا من مدينة "بوردو" منفى له، هذا الهروب لم يغفره له زملاء النضال وعدوه جبنا وأنانية وانهزامية.

والحقيقة أنه عندما يختلي "عبد العاطي" بنفسه نجده يعيش الحزن لشعوره بالضياع وغياب الهوية كما يخبرنا السرد( أبحر مسافرا في أعماقه، فاتحا جراحة الماضية، فإذا الأمس البعيد قريب... قريب!...، تذكر تلك الليلة الليلاء، التي لم يذق فيها طعم النوم وهو يعيش مأساة الاختيار الصعب عندما توجه إلى ولاية مدينة بوردو لتقديم طلب الجنسية، فاجأه الموظف بسؤال غريب :

(-هل تريد تغيير اسمك هذا أم الاحتفاظ به؟

-ولماذا أغيره؟

-ألا ترغب في الحصول على الجنسية الفرنسية؟

-طبعا ! لهذا أنا هنا !

إذا أردت أن تكون فرنسيا الأجدر بك إن تكون فرنسيا كليا لا جزئيا.

-ماذا تقصد، يا سيدي؟

-ألا ترى معي، أن اسم أبدلأطي وكلمة فرنسي-يبدوان متناقضين تناقضا غريبا؟ شخصيا، لا أتصور فرنسيا باسم !أبدلأطي ، كم هو ثقيل على اللسان! كم هو حاد النبرة، يكاد يثقب طبلة الأذن! كأن مقاطعه الصوتية دقات طبول الحرب!

- مع أنه في أرضه وعلى لسان أهله، له وقع السحر!...

- ممكن! ولكن، في أرضه وعلى لسان أهله كما تقول...لكن الآن، يوجد في أرض أخرى، وبين أهل آخرين...فأنت وبحكم حصولك على الجنسية، ستصبح واحدا من الفرنسيين. لذا، يجب أن يكون اسمك الشخصي، أكثر انسجاما وتناغما مع لغتهم وعالمهم...-لست أدري !... رد مرتبكا.

فهذا النص يكشف هذا الضياع وفقدان مقومات الهوية الشخصية التي يمثل الاسم أحد مقوماتها الأساسية، ثم غيابها تماما بتغيير الانتقال من الجنسية الوطنية إلى جنسية أخرى، وجاء تصوير هذا الضياع في قالب حواري قائم على الاستفهام والتعجب، للدلالة على التذبذب والتردد والتشتت.

وبرغم الضياع الذي عاشه "عبد العاطي" لكنه رفض استبدال اسمه العربي، ولم يغير مبادئه ولم يتخل عن ثقافته وحضارته وقد رفض الإنجاب من زوجته الفرنسية ولم ينصهر في المجتمع الفرنسي ناسيا جذوره المغربية العربية،

يعود عبد العاطي في الأخير للتصالح مع ذاته ووطنه ورفاق النضال**،**بعد أن يعتذر منهم**( أريد أن أعتذر لرفاقي الذين ربطتني بهم علاقة وثيقة ومحبة صادقة لا تقدر بثمن، أيام الدراسة الجامعية...أريد أن أعتذر لهم عن الألم الذي سببته لهم باتخاذي قرار البقاء في فرنسا...أن أقول لهم بأن ألمهم مهما كانت درجته، لا يصل مستوى ألمي الذي كان ألما مزدوجا: ألم البعد عنهم، وألم البعد عن الوطن...أريد أن أعتذر لهم واحدا واحدا...)** وتلتئم جراحه وهو يرى في نهاية الرواية صورته الحقيقية تظهر أمام رفاقه السابقين، الذين غفروا له هروبه إلى فرنسا، بعدما اكتشفوا أنه ما يزال يحلم مثلهم بوطن تتحقق فيه العدالة الاجتماعية ويؤمن بجدوى الفعل والعمل الجماعي، ترد عليه حبيبته في الماضي سامية ورفيقة نضاله (**لا أحد منا، يكن لك غير المودة! فأنت جزء من تاريخنا ومن أسطورتنا الذاتية...**

لقد كشفت لنا الرواية فاعلية الكتابة الروائية عند زهرة رميج" التي تخطت الوصف الذاتي إلى الوعي بالأزمة الوطنية بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والنفسية.

إن الروائية كتبت روايتها غير منفصلة عن الأحداث الاجتماعية والسياسية التي عاشها المجتمع، وهي ترصد مرحلة مهمة من تاريخ المغرب.